journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –

ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X

ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X

المجلد: 36	العدد: 02	السنة: 2022	الصفحة: 194–208	تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36	N° : 02	Year :2022	pages : 194-208	Date of Publication :13-10-2022

DOI : 10.37138/1425-036-002-011

نظرية المدارج الحجاجية في: "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير

The theory of argumentative scales in: "The walking Parable in the Literature of the Writer and Poet"by Ibn al-Atheer

1-الطالبة خديجة بصول
khadidja.bessoul@gmail.com
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

2- أ.د صالح خديش
lissaniat@yahoo.fr
جامعة عباس لغرور خنشلة

تاريخ الارسال:2021/06/10 تاريخ القبول: 2022/09/27

I. الملخص:

يسعى هذا المقال إلى الوقوف على لِبنة أساسية من لَبِنات الدرس الحجاجي، وهي نظرية المدارج الحجاجية في كتاب:" المثل السائر" لابن الأثير، وذلك باستنباط مستويات السلم الحجاجي عنده وتحليلها، وقد خلص البحث إلى أسبقية ابن الأثير في هذا الجانب الحجاجي، وبيان أنه يعمل عنده وفق تراتبية سُلَّميَّة يسلكها المخاطِب قصد التأثير في المخاطَب وإقناعه.

الكلمات المفتاحية: نظرية، المدارج، الحجاجية، ابن الأثير.

ABSTRACT:

This article seeks to identify a basic brick of the argumentative lesson, which is the theory of argumentative scales in the book: "AL Mathal AlSair" by Ibn al-Atheer, by deducing and analyzing the levels of the argumentative scale of him. The research concluded that Ibn al-Atheer took precedence in this argumentative aspect. And a statement that he works there according to a hierarchy of scales that the interlocutor moves through in order to influence and persuade the recipient.

Keywords : Theory, Argumentative, scales, Ibn Al Atheer

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –

ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X

ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X

المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022

Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022

DOI : 10.37138/1425-036-002-011

1. مقدمة:

تعزّزت الدراسة التداولية بظهور نظرية الحجاج في اللغة ل"ديكرو"؛ والتي شكّلت الثمرة الجنية لباكورة التداولية الأولى – نظرية الأفعال الكلامية– التي أسّسها " أوستين" و"سيرل"، إذ أضاف "ديكرو" لهذه النظرية فعلين كلاميّين هما: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج. ولقد حَظي هذا الفعل الآخِر قديما باهتمام المناطقة والمفسرين واللغويين والبلاغيين وغيرهم، كلٌّ يسعى إلى توظيفه في مجاله البحثي ليُثبت ما يذهب إليه.

ومن البلاغيين العرب القدامى الذين اهتموا بهذا الفعل الكلامي: ابن الأثير في كتابه:" المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"؛ فقد شكّل الحجاج قطب الرحى في كتابه، إذ تناوله بمختلف آلياته التأثيرية، وبشتّى استراتيجيّاته الإقناعية التي تحمل المخاطب على الاقتناع، ومن هذه الاستراتيجيات: الاستدراج الحجاجي؛ الذي جعل مدار البلاغة كلها عليه، فهو عنده وسيلة يتخذها المتكلم لاستمالة محاوره، واستدراجه ليستحوذ على عقله، ويؤثّر في عواطفه، حتى يُسلّمَ بالأمر المتنازع فيه. ويحدث هذا بطريقة مرتّبة ومتسلسلة ومقصودة، مما يجعله يكتسي طابعا تداوليا يوازي نظرية المدارج الحجاجية.

فما مفهوم الاستدراج عند ابن الأثير؟ وما مدى تساوق هذا المفهوم عنده مع المنجز الحجاجي السلمي عند ديكرو؟ وما ملامح نظرية المدارج الحجاجية في البلاغة التأثيرية؟

وسعيا للإجابة عن هذه الأسئلة انطلق البحث من الفرضيات الآتية:

– لدى ابن الأثير وعي بنظرية المدارج الحجاجية.

– يعد الاستدراج الحجاجي الأساسَ الذي تقوم عليه البلاغة التأثيرية.

– تدرُّج الحجج عند ابن الأثير يختلف باختلاف مقام إنجازها.

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

وللوقوف على صدق هذه الفرضيات من عدمه اعتمدت المنهج التحليلي الاستنباطي، كما اقتضت طبيعة البحث توظيف المنهج التقابلي.

وقد تمحور البحث حول النقاط التالية:

- مفهوم الاستدراج الحجاجي.
- ملامح نظرية المدارج الحجاجية في كتاب المثل السائر.
- تحليل النتائج.

والغاية المنشودة من هذه المقاربة هي التنقيب عن تجليات نظرية المدارج الحجاجية، في ثنايا مباحث كتاب:" المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر".

1. تعريف الاستدراج الحجاجي:

قبل الولوج إلى مضمون البحث يحسن تحديد المعنى اللغوي للاستدراج، يقول الفيروز آبادي:" الفعل في هذه المادة درج يدرج دروجا فهو دارج، أي: صعد...ودرّجه في الأمر تدريجا أي جرّه إليه قليلا قليلا" (آبادي 1996، ص 582)، و:" ودرجه إلى كذا واستدرجه بمعنى: أي أدناه منه على التدريج فتدرّج هو، وفي التنزيل العزيز:﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: 182] قال بعضهم: معناه: سنأخذهم قليلا قليلا ولا نباغتهم، وقيل معناه: سنأخذهم من حيث لا يحتسبون...وامتنع فلان من كذا وكذا حتى أتاه فلان فاستدرجه، أي خدعه حتى حمله على أن درج في ذلك...ويقال: درج إذا صعد في المراتب، ودرج إذا لزم المحجّة من الدين والكلام، وقال الأعشى:

لَيَسْتَدْرِجَنَّكَ القَوْلُ حَتَّ تَهُزَّهُ وَتَعلَمَ أَنِّي مِنْكُمْ غَيْرُ مُلْجَمِ" (منظور بلا تاريخ، ص 268)

ويفهم من هذا التعريف أنّ الاستدراج هو إدناء المتكلم لمخاطبه شيئا فشيئا، وحمله على قبول رأيه بعد أن كان يمانعه أو

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –

ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X

ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X

المجلد: 36	العدد: 02	السنة: 2022	الصفحة: 194–208	تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36	N° : 02	Year :2022	pages : 194-208	Date of Publication :13-10-2022

DOI : 10.37138/1425-036-002-011

يعارضه.

ولا يخرج المفهوم الاصطلاحي (البلاغي) الذي حدّده ابن الأثير، عن مدلول هذا التعريف اللغوي حيث يعرّفه بقوله: " هو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال؛ والكلام فيه وإن تضمّن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمّنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حُقِّق النظر فيه عُلم أنّ مدار البلاغة كلها عليه؛ ولا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها، والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيرا في خلابه، لا قصيرا في خطابه، فإذا لم يتصرّف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده، فليس بكاتب" (الأثير بلا تاريخ، 2/ 250).

فالاستدراج في جانبه البلاغي الاستعمالي عند ابن الأثير، هو تدرّج المتكلم في عرض الحجج بطريقة تسلسلة ومرتّبة على نسق معيّن، حجّةً حجّةً، قصد استمالة المخاطب شيئا فشيئا والاستحواذ على فكره قليلا قليلا، وجرّه إلى التسليم بالأمر المختلف فيه، حتّى يرضخ لقول المتكلم ويأخذ به.

ويرى ابن الأثير أنّ البلاغة كلّها تقوم وتستند على هذه الاستراتيجية الحجاجية، وأنّ المتكلم– الكاتب– إذا لم يتمكّن من استمالة قلب المنازع والتأثير فيه، واستدراجه حتى يقتنع ويسلّم له بالأمر المتنازع فيه فليس بكاتب.

وتتمظهر هذه النظرة في الدرس الحجاجي الحديث عند اللغوي الفرنسي: "أزفالد ديكرو"، الذي انطلق في بناء نظريّته المعروفة ب: السلالم الحجاجية، من فكرة مؤدّاها:" أننا نتكلّم عامة بقصد التأثير" (العزاوي 2006، ص 14)، ويشير مصطلح السلالم الحجاجية (échelles argumentatives) إلى الآليات الدرجية (scalarité)؛ أي التدرّج (igradation) التي يتم إعمالها من قبل المتكلمين لإبراز وجهة نظر معيّنة" (بافو 2012، ص 376، 377).

والسلم الحجاجي هو: "عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبية، وموفّية بالشرطين التاليين:

أ– كل قول يقع في مرتبة ما في السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم من القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

ب- كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معيّن، كان يعلوه مرتبة دليل أقوى عليه" (الرحمان 1998، ص276)، فهي عبارة عن مجموعة من الأفعال الإنجازية، التي لها قوة تأثيرية، وتندرج هذه الحجج – على نسق تصاعدي- مرتّبة حسب قوتها من الحجة الأقلّ إلى الحجة القوية، إلى الحجة الأقوى:

" فالأقوال المثبتة للمدلول الواحد لا تتعدّد فحسب، بل إنّها تتفاوت في قوتها التدليلية، أو قل في "حجّيّتها"، بحيث يعلو بعضها على بعض، منشئة بذلك ما يدعى بالسلم الحجاجي" أو نظرية المراتب أو المدارج على حدّ تعبير الباحث طه عبد الرحمان (الرحمان 1998، ص 273). وجاء في القاموس الموسوعي للتداولية أنّ:" الحجاج في معناه العادي مجموعة من الترتيبات والاستراتيجيات التي يستعملها المتكلم في الخطاب، قصد إقناع سامعيه" (موشلر 2010، ص 93).

3.ملامح نظرية المدارج الحجاجية عند ابن الأثير:

ساق ابن الأثير بعض الشواهد القرآنية، تتماشى مع نظرية المدارج الحجاجية، ومن ذلك:

قول الله تعالى:﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِن مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَّكُ كَاذِبًا فعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَّكُ صَادِقًا يُّصِبْكُمْ بعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾ **[غافر:28]** فقد جاءت هذه الآيات بنية حجاجية متكاملة مرّت بثلاث محطّات استدراجية بدءا بالتمهيد والافتتاح للحجاج، مرورا بالفرضيات المدعّمة بالأدلّة، وصولا إلى النتيجة التي أراد الرجل الصالح إيصالها إلى فرعون وأتباعه.

فقد استفتح محاجّتهم باستفهامٍ إنكاريٍّ، انطلق فيه من واقعة صادقة وحقيقة مثبتة؛ وهي أنّ موسى- عليه السلام- أتى بالبيّنات، وفي الدرس الحجاجي الحديث:" يرى بيرلمان أنّ المقدّمات هي التي تؤسّس نقاط الانطلاق في الحجاج، ومن أهمّ هذه المقدّمات هي الوقائع والحقائق" (الطلبة 2008، ص 129).

استهلّ الرجل المؤمن استدراجه من مسلّمة واقعيّة معلومة في نفس خصومه، جاءت في شكل استفهام

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

نكاريٍّ، أراد من خلاله تنبيههم إلى خطورة الأمر الذي هم مقدمون عليه، وفي نفس الوقت هو دعوة لهم إلى التفكير في المعجزات التي أجراها الله تعالى على يدي موسى– عليه السلام–، وهذا ما يثبته الجواب الخبري المؤكَّد ب "قد"، الذي تلا مباشرة هذا الاستفهام، فهو:" ارتقاء في الحجاج بعد أن استأنس في خطاب قومه بالكلام الموجّه، ارتقى إلى التصريح بتصديق موسى بعلّةِ أنّه جاء بالبينات" (عاشور 1984، 129/24)، (تندرج حجة التقسيم ضمن الحجج شبه المنطقية، والتي تعتمد على البنى الرياضية،" فالحجاج شبه المنطقي يحتمل بطبيعته استثناءات واسعة جدا، فهو احتمالي يستند إلى الخصائص المفترضة للتعدية والتطابق والتقسيم" (برطون 2013، ص 177))

بإخبارهم بمعلومة مثبتة حصلت أمام أعينهم، فكانت هذه المقدمة قائمة على الحجج المؤسّسة على بنية الواقع.

ثم ارتقى إلى المحطة الاستدراجية الثانية، والتي شكّلت بؤرة هذه المحاجّة ومرتكزها، فقسمها قسمين، حاول من خلالهما استدراج خصمه الجاحد إلى الإذعان والإقرار بتصديق موسى– عليه السلام–، فأقامها على حجّة التقسيم (مفادها:" تقسيم الكل إلى أجزائه المكوِّنة له، كي يتسنّى للمحاجج توظيف الأجزاء وتحميلها الشحنة الإقناعية التي كانت لها مجتمعة، وعلى المتكلم عند استخدامه هذا النوع الحارص على أن يكون تعداده للأجزاء شاملا (الطلبة 2008، ص 129)).

وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن الأثير ألمح إلى اعتماد المحاجج الذي أراد أن يحمي موسى– عليه السلام–، ويدفع عنه أذى فرعون، على حجّة التقسيم بقوله:" فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم، فقال: لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا فكذبه يعود عليه ولا يتعدّاه، أو يكون صادقا [وإن كان صادقا] يصبكم بعض الذي يعدكم إن تعرّضتم له" (الأثير بلا تاريخ، 251/2).

ومما يلحظ على هذه الحجة أيضا قيامها على مبدإ الاحتمال، الذي يتأسّس على افتراض فكرتين جوهريّتين يحاول المتكلّم من خلالهما إثبات إحداهما للمحاور، فيتأثّر المتلقّي بذلك الاحتمال الذي يحمل شحنة إقناعية أكبر، والذي تكون قوّته الإنجازية أكثر تأثيرا وإقناعا من الاحتمال الآخر، " فهذه الافتراضات وإن كان مسلّما بها من قبل

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

المعنيين سلفا، إلا أنّ التسليم القويّ بها في إطار الخطاب لا يكون كذلك ما لم تُشفع بأدلّة وأنساق برهانية تدعمها" (الطلبة 2008، ص 112).

فجاء الاحتمال الأول في هذه المحطّة الاستدراجية بافتراض أنّه كاذب في قوله تعالى:﴿**وَإِن يَّكُ كَاذِبًا فعَلَيْهِ كَذِبُهُ**﴾، حتّى يضمن إصغاءهم، واستمرار الحديث معهم، والاطمئنان إلى رأيه والأخذ به، وفي هذا الاحتمال يقول ابن الأثير:" فقد علم أنه نبي صادق، وأنّ كلّ ما يعدهم به لا بدّ وأن يصيبهم لا بعضه؛ لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى –عليه السلام– أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول، ويأتيهم من جهة المناصحة، ليكون أدعى إلى سكونهم إليه، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم إياه" (الأثير بلا تاريخ، 252/2) فقدّم احتمال كذبه على احتمال صدقه حتّى يستميل قلوبهم.

فالغرض من هذا التقديم إذا هو:" زيادة في التباعد عن ظنّهم الانتصار لموسى فأراد أن يظهر في مظهر المهتم بأمر قومه ابتداء" (عاشور 1984، 129/24) وكان الاحتمال الثاني أنّه صادق فيما أتى به، قال تعالى:"**وَإِن يَّكُ صَادِقًا يُّصِبْكُمْ بعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ**"، وفي تأخير احتمال صدقه، يقول ابن الأثير:" وهو كلام المنصف في مقابلة غير المشتطّ؛ وذلك أنّه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد به، لكنه أردف بقوله:" **يُصِبْكُمْ بعْضُ الذِي يَعِدكُمْ**" ليهضمه بعض حقّه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقّه وافيا، فضلا عن أن يتعصّب له، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل، كأنّه برْطَلَهم في صدر الكلام، بما يزعمونه لئلا ينفروا منه" (الأثير بلا تاريخ، ص 251).

وحريٌّ بنا الإشارة إلى أنّ هذه الاستراتيجية الاستدراجية القائمة على مبدآ الاحتمال، تقنيةٌ حجاجية وظّفها العرب قديما في خطاباتهم الإقناعية، وهذا مثال على ذلك: يقول صاحب الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، بأنّ هذا النوع من الحجاج:" جارٍ على ما يتخاطب به العرب من استعمال الإنصاف في محاوراتهم على سبيل الفرض والتقدير، ويسمّيه أهل البيان بالاستدراج وهو أن يذكر لمخاطبه أمرا يسلّمه، وإن كان بخلاف ما يذكره حتّى يصغي إلى ما يلقيه

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

إليه، إذ لو بدأه بما يكره لم يصغِ" (الحلبي بلا تاريخ، 183/9).

ثم جاءت المحطّة الأخيرة من هذا السلّم الحجاجي عبارة عن نتيجة، تبنّى المتكلّم من خلالها الافتراض الثاني، الذي كان مؤيَّدا بالدليل الواقعي الملموس في بداية المحاجّة؛ إلاّ أنّه قدّم النتيجة وفق الاستراتيجية التلميحية، فكانت مُضمَرة في القول لم يصرّح بها، وتمثّلت في قول الله- تعالى:﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:28]وهذا تلميح بصدق موسى- عليه السلام- النبي الرسول المصطفى من الله – تعالى-، والمخصوص بالتكليم وبتسع آيات ظاهرة، و: " هو على الهدى، ولو كان مسرفا كذّابا لما هداه الله للنبوّة، ولا عضّده بالبيّنات، وهذا الكلام من خداع الخصم واستدراجه" (الأثير بلا تاريخ، 252/2).

ويمكن التمثيل لهذا السلم الحجاجي بالرسم البياني التالي:

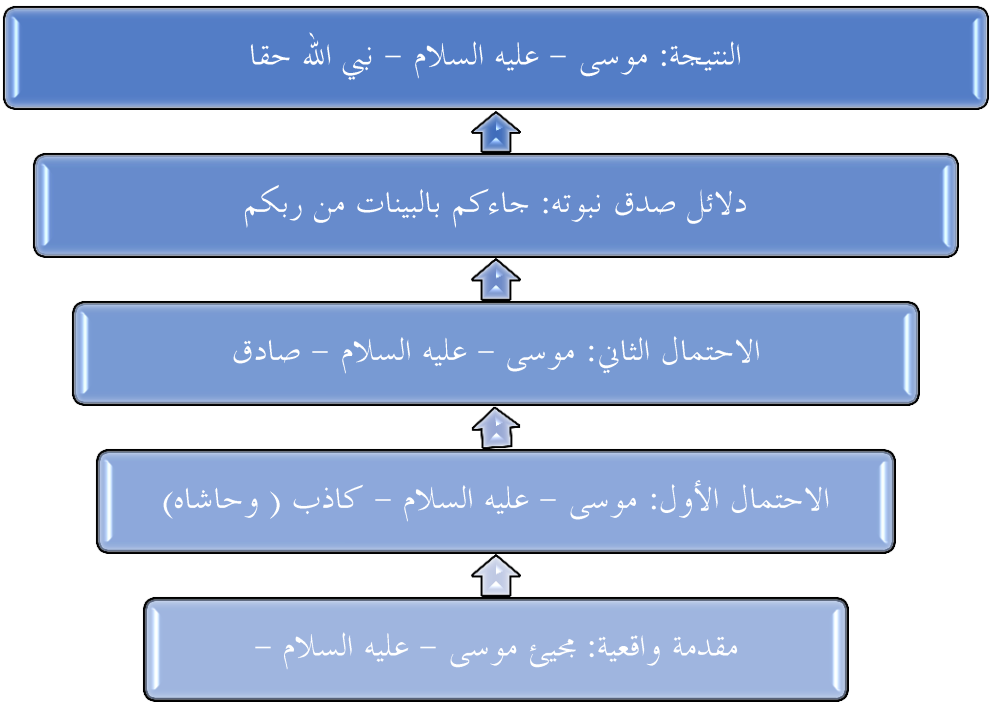

رسم بياني يمثل ترتيب الحجج في محاجة الرجل الصالح لقومه

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

5. تحليل النتائج:

رجّح الباحث" عبد الله صولة" كونَ ابنَ الأثير متأثّرا بالزمخشري في صياغته لنظرية الاستدراج الحجاجي من خلال قصّة مؤمن آل فرعون في سورة غافر، وإن كنّا نتفق معه في هذا الترجيح إلاّ أننا لا نتفق معه في اعتباره:" نظريةَ ابن الأثير هذه على أهمّيتها تظل في حاجة إلى كثير من الجهد والأناة، ليبرهن على مدى انطباقها من الناحية العملية على الكلام القرآني كلّه، لا على آية واحدة أو آيتين..." (صولة 2007م، ص 57)، ومما يفنّد زعم الباحث أنّ ابن الأثير قد صرّح بأنّ :" في القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس، لاسيما في مخاطبات الأنبياء- صلوات الله عليهم- للكفار، والرّدّ عليهم" (الأثير بلا تاريخ، 254/2)، كما استنتج بأنّه:" إذا حُقّق النظر فيه (أي الاستدراج) علم أنّ مدار البلاغة كلها عليه" (الأثير بلا تاريخ، 250/2)؛ فاستنادا إلى كلام ابن الأثير السابق، إضافة إلى إنعام النظر في المباحث البلاغية في كتاب المثل السائر، يجعلنا نجزم بأنه لم يقتصر على آية أو آيتين كما نسب إليه ذلك الباحث" عبد الله صولة"؛ لأنّا وجدنا لديه شواهد أخرى موزّعة على مباحث بلاغية مختلفة، تؤكّد هذه النظرية الحجاجية، ومن ذلك أنه وفي باب الالتفات وقف عند قول الله – عزوجل- حكاية عن الرجل الصالح الناصح لقومه في سورة يس:﴿**وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ ترْجَعُونَ**﴾، [سورة يس: 22] فقد عدل عن خطاب النفس الذي جاء في استفهام إنكاريٍّ إلى خطابهم، والغرض من ذلك هو:" إبراز الكلام لهم في معرض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطّف بهم ويداريهم؛ لأنّ ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، وقد وضع قوله – تعالى-:﴿**مَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي**﴾ مكان قوله: ما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ألا ترى إلى قوله:﴿ **وَإِلَيْهِ ترْجَعُونَ**﴾، ولولا أنّه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع" (الأثير بلا تاريخ، 173/2)؛ فقد ألمح لهم أنّه يقدّم النصح لنفسه، إلا أنّ الغاية من هذا القول هو مناصحتهم ومداراتهم واستدراجهم للاقتناع بالخالق- سبحانه وتعالى.

وفي مبحث التقديم والتأخير، يرى ابن الأثير أنّ المتكلّم يستدرج المتلقّي إلى الإذعان له والتسليم بتقديم السبب

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

على المسبب، وهذا التقديم يقوم على علاقة تراتبية منطقية تستلزم الحجة الأولى فيه وجود الثانية، وتستلزم الثانية وجود الثلاثة، وهكذا دواليك إلى أن يصل المتكلّم إلى نتيجة معيّنة يسلّم بها المتلقي العاقل، وتكون حجّة على المعاند الجاحد، ويَستشهد لهذا الضرب من التقديم الذي يختص بدرجة التقدّم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك بقول الله –تعالى– :﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا. لِنُحْيِيَ بِهِ بلْدَةً مَّيتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾؛ [سورة الفرقان: 48–49] فقدّم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس، وإن كانوا أشرف محلا؛ لأنّ حياة الأرض سبب لحياة الأنعام والناس، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدّمة في الذكر، ولما كانت الأنعام من أسباب التعيّش والحياة للناس قدّمها في الذكر على الناس، لأنّ حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدّم سقي ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم" (الأثير بلا تاريخ، 224/2)، ويمكن وضع هذه الحجج في السلم التالي:

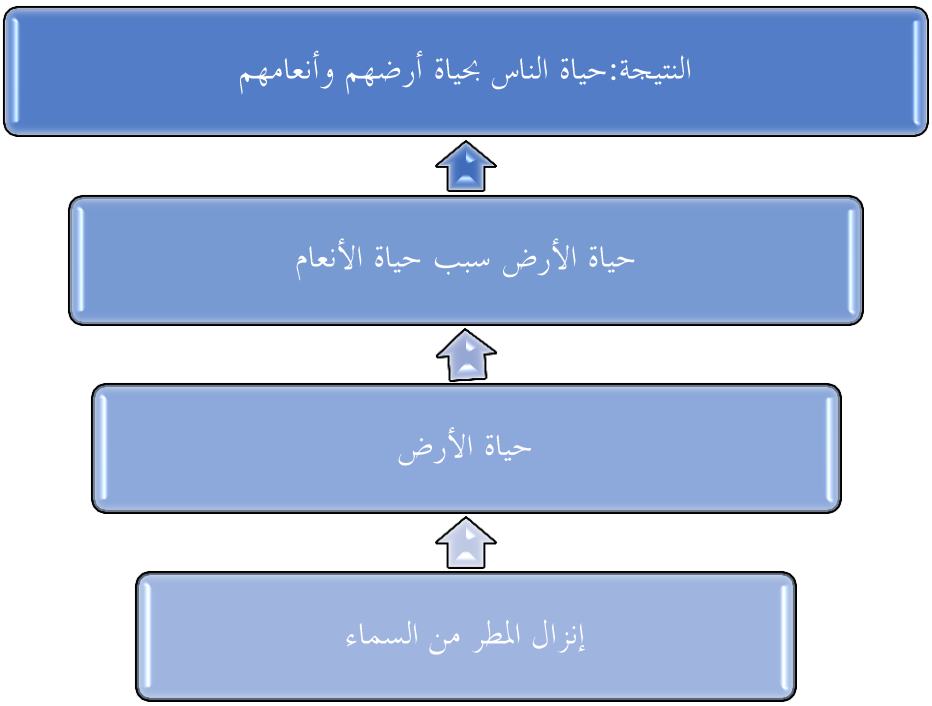

رسم بياني يمثل ترتيب الحجج في التدليل على قدرة الله في إحياء الموتى

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

فالقول الأول (إنزال الماء الطهور من السماء) يؤدي إلى القول الثاني (حياة الأرض)، والقول الثاني يستلزم القول الثالث (حياة الأرض سبب حياة الأنعام)، والقول الثالث يقتضي نتيجة مفادها: أنّ حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم. وهذه الأقوال في حقيقتها حجج بعضها سبب في وجود بعض، والحجة الأولى هي الأصل، وهي سبب قيام الحجج الأخرى ولهذا قُدّمت، والغرض من ترتيب هذه الحجج على هذه الشاكلة هي استدراج المتلقّي إلى الاقتناع بقدرة الله الباهرة ومعجزاته الخارقة، والتسليم له.

وتفسير ابن الأثير لتقديم السبب على المسبب يتواشج مع ما خلص إليه" ديكرو" بأنّ:" الحجة الأولى في قاعدة السلم مساعِدةٌ للثانية، بل إنّها أصل لها ومُنطلَق للأخذ بها" (بوسلاح 2014، 2015، ص 115).

ويمكن للمتكلّم أن يستدرج مخاطبه باعتماده نَسَقا تصاعديا أيضا يقدّم فيه الأعجب فالأعجب، ومثاله عند ابن الأثير قول الله– تعالى–:﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنهُم مَّن يَّمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنهُم مَّن يَّمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنهُم مَّن يَّمشِي عَلَى أَرْبَعٍ**﴾. [سورة النور: 75] وفي هذا الترتيب للحجج يقول:" فإنّه قدّم الماشي على بطنه؛ لأنه أدل على القدرة من الماشي على الرجلين، إذ هو ماشٍ بغير الآلة المخلوقة للمشي، ثم ذكر الماشي على رجلين وقدّمه على الماشي على أربع؛ لأنه أدل على القدرة أيضا حيث كثرت آلات المشي في الأربع، وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب" (الأثير بلا تاريخ، 2/ 225)؛ ففي ترتيب الحجج بهذا التقديم المتصاعد في تدرّجٍ، وهي حجج ظاهرة وواقعية تدلّ على عظيم قدرة الله– عزوجل–، استدراج للكافر للإقرار بربوبية الله تعالى وتفرّده بهذا الخلق البديع، وبالتالي استحقاقه للعبادة وحده دون ما سواه،" فرتّب الأجناس في حال المشي على ترتيب قوة دلالتها على عِظم القدرة؛ لأنّ الماشي بلا آلةِ مشيٍ ممكنة أعجب من الماشي على رجلين" (عاشور 1984، 266/18) .

ودعا ابن الأثير المتكلمَ إلى مراعاة مقام الخطاب في ترتيب كلامه، فإذا كان في مقام مدح فيستحسن له أن يتّبع نسقا تصاعديا في عرض حججه وأقواله، وأما كان في معرض ذمٍّ فينبغي عليه أن يتبع نسقا تنازليا في عرض الحجج، وذلك في انتقاده للمتنبي في إغفاله هذا المبدأ في قوله:

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

يَا بَدْرُ يَا بَحْرُ يَا غَمَامَةُ يَا لَيْثَ الشَّرَى يَا حِمَامُ يَا رَجُلْ

حيث قال:" وينبغي أن يبدأ فيه بالأدنى فالأدنى، فإنه إذا فعل كان كالمرتفِع من محل إلى محل أعلى منه، وإذا خالفه كان كالمنخفض من محل إلى محل أدنى منه، فأما قوله: يا بدر، فإنه اسم الممدوح، والابتداء به أولى، ثم بعده فيجب أن يقول: يا رجل، يا ليث، يا غمامة، يا بحر، يا حِمام لأنّ الليث أعظم من الرجل، والبحر أعظم من الغمامة، والحِمام أعظم من البحر، وهذا مقام مدح فيجب أن يرقى فيه من مترلة إلى مترلة حتى ينتهي إلى المترلة العليا آخرا، ولو كان مقام ذمٍّ لعكس القضية" (الأثير بلا تاريخ، 208/2، 209).

5.خاتمة:

إذا تقرر كل ما سبق، فقد بان حوز ابن الأثير قصبَ السبق في هذا الجانب الحجاجي؛ فالاستدراج الحجاجي عنده يشتغل وفق تراتبية سلمية، ينظمها المتكلم قصد إحداث أثر في المتلقي وهذا ما خلص إليه ديكرو.

– لقد اشتغل ابن الأثير في دراسته للحجاج على الجانب البلاغي، في حين اشتغل ديكرو على الجانب اللغوي الاستعمالي، فاعتمد ابن الأثير في بناء نظريته على الخطاب القرآني أولا، ثم على نماذج من الحديث النبوي الشريف، وعلى شواهد من كلام العرب منظومه ومنثوره، فلا غنى عنده للبلاغة عن الاستدراج، بينما اعتمد ديكرو أسوة بأوستين وسيرل على اللغة المستعملة في الخطابات اليومية، فلا غنى عنده للغة عن الحجاج.

– الحجة الأولى (القول الأول) في قاعدة السلم عند ابن الأثير وديكرو هي أساس قيام الحجة الموالية ومرتكزها تصاعديا في ترتيب حججه إذا كان في معرض مدح، وأما إذا كان في معرض ذم فعليه أن يتبع نسقا تنازليا في عرض الأقوال.

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

– النماذج التي اعتمدها ابن الأثير في عرض نظريته تفوق في بلاغتها وحسن نظمها وقوتها النماذج التي اعتمدها ديكرو.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، د ط، ج2: دار صادر، بلا تاريخ.

Ibn Mandhor, Abu al-Fadl Jamal al-Din Muhammad ibn Makram, Lisan al-Arab, Beyrouth, sans édition, vol. 2: Dar Sadir, s.d.

2. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، 2006.

Abu Bakr al-Azzawi, Langue et pèlerins, Imprimé par Aloumda, 1e édition, 2006.

3. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مصر :دار نهضة مصر.

Ibn al-Athir, Le Proverbe dans la littérature de l'écrivain et poète, Égypte: Dar Nahdat Misr.

4. السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب، تح: أحمد محمد الخراط، دمشق: دار القلم، بلا تاريخ.

Al-Samin al-Halabi, al-Dur al-Masun dans les Sciences du Livre, Réaliser par: Ahmad Muhammad al-Kharrat, Damas: Dar al-Qalam, s.d.

5. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984.

Taher Ben Achour, Libération et Lumières, Tunis: Maison d'édition tunisienne, 1984.

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria
مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –
ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X
المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022
Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022
DOI : 10.37138/1425-036-002-011

6. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، ت: 817ه، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد علي النجار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة، ط3، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1996.

Al-Fayrouzabadi, Majd al-Din Muhammad ibn Ya'qub, d. 817 AH, Visions des discriminés dans la secte du Cher Livre, Réaliser par: Muhammad Ali al-Najjar, Conseil suprême des affaires islamiques. Le Caire, 3e édition, Comité pour la renaissance du patrimoine islamique, 1996.

7. جاك موشلر. آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين، بإشراف: عز الدين المجدوب، تونس: دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2010.

Jack Mushler. Anne Ripoll, Dictionnaire encyclopédique de la délibération, Traduire: Un groupe de professeurs et de chercheurs, supervisé: Ezzedine Mejdoub, Tunisie: Dar Sinatra, Centre national de traduction, 2010.

8. طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998.

Taha Abdul Rahman, langue et équilibre ou reproduction mentale, Centre culturel arabe, 1re édition, 1998.

9. عبد الله صولة، الحِجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، لبنان: دار الفارابي، ط2، 2007م.

Abdullah Soula, Les argument dans le Coran à travers ses caractéristiques stylistiques les plus importantes, Liban: Dar al-Farabi, 2e édition, 2007.

10. فايزة بوسلاح، السلالم الحجاجية في القصص القرآني، مقاربة تداولية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللسانيات. الجزائر: جامعة وهران1، أحمد بن بلة، 2014 ، 2015.

journal of Emir Abd El kader University of Islamic Sciences
Constantine- Algeria

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
– قسنطينة الجزائر –

ISSN:1112-4040 & EISSN: 2588-204X

ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–204X

المجلد: 36 العدد: 02 السنة: 2022 الصفحة: 194–208 تاريخ النشر: 13–10–2022

Volume : 36 N° : 02 Year :2022 pages : 194-208 Date of Publication :13-10-2022

DOI : 10.37138/1425-036-002-011

Faiza Bousleh, Les escaliers Argumontatives dans les histoires coraniques, Méthodologie délibérative, Introduction à la thèse de linguistique doctorale. Algérie: Université d'Oran1, Ahmed Ben Bella, 2014, 2015.

11.فيليب برطون، الحجاج في التواصل، تر: محمد ميشال عبد الواحد التهامي العلمي، مصر، ط1، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2013.

Philippe Barton, L'arguments dans la communication, Traduire: Mohamed Michel Abd El , Wahid Al , Tohami Al , Alami, Égypte, 1er édition, Autorité générale égyptienne du livre, 2013.

12.ماري آن بافو. جورج إلياسرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، تر: محمد الراضي، . بيروت، لبنان، ط1: المنظمة العربية للترجمة، 2012.

Mary Ann Baffau. Georges Elisarvati, Les grandes théories linguistiques de la grammaire comparée à grammaire instrumentaliste, Tr: Muhammad al-Radi, Beyrouth, Liban, 1ère édition : Organisation arabe pour la traduction, 2012.

13.محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008.

Mohammed Salem Mohammed Al-Amin Tolba, L'arguments dans la rhétorique contemporaine, Recherche dans la rhétorique de la critique contemporaine, Dar Uni Nouveau Kitab, 1 er édition.